اثر المتنبي

احتفلت الجامعة الاميركية في بيروت ، مساء الاحد الواقع في ٣ حزيران ١٩٣٥ ، بمرور الف سنة على وفاة ابي الطيب المتنبي. فتكلم في حياة الشاعر ومختلف آثاره وحط من ادباء العالم العربي وشعرائه ، ممثلين مصر ، والعراق ، وفلسطين ، وسورية ، ولبنان . وها اننا ننشر في ما يلي الخطاب الذي القاه فؤاد افرام البستاني ، استاذ الآداب العربية في جامعة القديس يوسف ، وموضوعه: « اثر المتنبي »

ايها السيدات والسادة

كان الناس يقولون ، قبل الف سنة ، اذا ما عرضوا لذكر شاعرنا : « المتنبي ؟ ... هو شاعر سيف الدولة ! » اما نحن فنقول اليوم : « سيف الدولة ؟ ... هو ممدوح المتنبي ! »

...

عبثاً ينقب الاثريون ، في ارض حلب ، عن قصر اميرها العظيم ، وعبثاً يفتشون عن مصانعه العديدة في الثغور . فقد انهارت تلك الابنية الفخمة ، في حين ان بناء المتنبي لا يزال ماثلاً في ديوانه العالي ، يرتاده ادباء العالم العربي منذ الف سنة حتى اليوم ، ويردد ابياته كل من عرف شيئاً عن هذه اللغة في اي عالم كان.

بيد ان ابا الطيب لم ينتظر مرور القرون ليتمتع بهذه الشهرة الواسعة ، ويحدث هذا الاثر البعيد.. فقد كان له ، حتى في حياته ، حظ نادر في سعة الشهرة. وبعد الاثر . وكأنه صور حاضره ، وتنبأ عن مستقبله ، عندما قال :

وما الدهر الا من رواة قصائدي اذا قلت شعراً ، اصبح الدهر منشدا
فسار به من لا يسير ، مشمراً وغنى به من لا يغني ، مغردا

لم يكن ينشد القصيدة الا سارت في البلاد تحدو بها الركبان من منزل الى منزل ، وينقلها الادباء من مجتمع الى مجتمع . يستعيد مقاطعها الممدوح ورجاله

طربين ، ويزري عليها الحساد غاضبين . يسمع بها الشعراء ، وهم كثر ، فيترأونها في خلواتهم ، فيعجب المخلصون منهم بقوتها وسموها ، ويجتهد غيرهم في طمس محاسنها ؛ على انهم جميعاً يتأثرون بها في مداخهم المختلفة . يتفقد ابياتها ارباب اللغة ، وسادة النحو ، وشيوخ الصناعة النظمية ، فيغتبط الاصدقاء منهم بما فيها من تركيب جديد ، وصورة طريفة ، وجرأة نادرة ؛ ويحتج الاعداء على ما يرون من غموض نافر ، وشرود شاذ . يتعصب له البيغاء في بلاط سيف الدولة فينشر مآثره ، ويتعصب عليه ابو فراس فيفتش عن سرقاته وكلهم يعملون ، عن قصد وعن غير قصد ، على نشر شعره والاشادة بذكره . والمتنبي الشاعر لا يبدو حافلاً بهذه المظاهر ، يتابع طريقه فاخراً شامخاً « يترك الورى خلفه » للمتنافسين الساعين وراء القصائد المحكمة ، « وينام ملء جفونه عن شواردها » ، مطمئناً طمأنينة الفنان القدير الذي لا يخشى مزاحمة ولا يخاف غلبة . وتتجاوز المناظرات بلاد حلب الى العراق وفارس ، فيحاول ابن العميد ، زعيم ادباء الشرق في عصره ، اخماد ذكر المتنبي ، فلا يقوى الا على ايلام نفسه . عندما يتحقق ان احدى قصائد الرجل ، وهي مرثيته في اخت سيف الدولة ، قد جابت البلاد العربية والعجمية ، على قلة وسائل النشر وصعوبة المواصلات اذ ذاك ، في اقل من سنة ونصف سنة

ويقضي المتنبي قتيلاً . وتكر الاعوام تلو الاعوام ، والعالم الادبي على انقسام في شأنه ؛ وما انقسم العالم الادبي في شأن شاعر الا كان عظيماً . هناك الناقمون وفي طليعتهم الصاحب بن عباد ، ثم ابو سعيد العبيدي ، يفتشون عن « سرقات المتنبي لفظاً ومعنى » . وهناك المريدون والمعجبون ، وعلى رأسهم ابو العلاء المعري ، يسمون بالشاعر الى الاوج ، فيدعون ديوانه « معجز احمد » . وكان من الطبيعي ، وقد خفت وطأة المآرب الشخصية والتحامل العاطفي ، ان يقوم من الادباء حزب ثالث ينتدب نفسه الحكم الفصل بين الفريقين ، فيتخذ التحفظ واتداً والتوسط موقفاً ، معتبراً ان خير الامور الوسط . هو فريق المصلحين . كان منهم القاضي الجرجاني ، وابو منصور الثعالبي ، وابو علي الحاتمي . كتب الاول « الوساطة بين المتنبي وخصومه » ، وافرد الثاني في « يتيمته » فصلاً ضافياً لذكر ما

المتنبي ومـا عليه ، وألف الثالث رسالة « فيما وافق المتنبي في شعره كلام ارسطو في الحكمة ». حتى اتى ابن الاثير فذكر كثيراً من محاسنه ومساوئه في « المثل السائر ».

ولكن جهود هؤلاء المصلحين لم تحسم الخلاف، فظل شاعرنا على روعته يثير الاعجاب والازدراء.. يرى فيه اكثر النقاد الشاعر الشاعر ، فاذا ارادوا ان ينعتوا عبقرية ابن هـاني ، اشعر شعراء الاندلس وافريقية في عصره ، لقبوه « بمتنبي الغرب » ، ويحتقره بعضهم فـلا يراه ابو هلال العسكري بشيء ، ويخرجه ابن خلدون وشيوخه من هيكل الشعر . ولله ابن خلدون ما انفذ بصره في علم العمران واصوله ، وما اقصره في الحكم على الشعر والشعراء !

ويفوز الحزب الاول فتتراجع حملات الانتقاص شيئاً فشيئاً عن ذاك الصرح العالي ، فيبدو ديوان المتنبي المثـال الاعلى للشعر العربي ، ويصبح اسم المتنبي مرادفاً للشاعر العظيم . وهكذا يقطع عصر الانحطاط الى القرن التاسع عشر ، فيتأثر بعظمته الشيخ ناصيف اليـازجي ويهتف : « كان المتنبي يمشي في الجو ، وسائر الشعراء يمشون على الارض ! » وتتعـدد الشروح والتعاليق على شعره يتناقش فيها ادباء العرب والمستشرقون من ابن جني الى الافليلي الى المعري الى التبريزي الى الواحدي الى العكبري الى اليازجي في الشرق ، ومن رايسكه الى دي ساسي الى هـامر الى نيكلسون الى بروكلمن الى بلاشير الى فرنشيسكو گبريالي في الغرب .

***

هذه لمحة سريعة تفيدنا ، وان سطحية ، ما اكتنف اسم المتنبي من شهرة واسعة وما كان لشعره من اثر بعيد ، وما احدثت شخصيته من ضجة «ملأت الدنيا وشغلت الناس» ، على حدّ قول ابن رشيق .

فاذا اجتهدنا الان في تحديد العوامل التي ساهمت في احداث هذا الاثر ، ثم انتهينا الى الحكم في هل افاد الشعر العربي ام لا ، نكون قد عملنا على جمع اطراف الموضوع .

اما العوامل الخارجية فاقواها ما كان من منافسة امراء العصر ، كل امير

بشاعره ، ومـا كان من حسد الشعراء بعضهم لبعض. وقد اشرنا الى شيء من هذا بما لا يتسع معه المجال للتفصيل.

على ان هناك عوامل اعمق واثبت تنحصر في صفات هذا الشعر الذي جابه العقبات مـدة الف سنة ، ولا يزال ، في قسم كبير منه ، على جدّته الاولية يضاف اليها روعة القدم وجلال التاريخ .

يستند الاثر الادبي في نشأته الى عناصر متعددة منها مـا يتعلق بالعصر الذي وُلد فيه ، وبالبيئة التي غذته ، فيتأثر بالمؤثرات الظرفية ، ويخضع للاوضاع والتقاليد المحلية ، ومنها ما يسمو فوق المكان ، فيتصل بطبيعة النفس البشرية وهي واحدة في جوهرها ، على اختلاف ما يكيّفها من الاعراض. فاذا آذن الدهر بالانتقال ، وتحورت عادات الشعب وتقاليده ، اضحى الاثر الادبي ، في عناصره الظرفية المحلية ، عرضة للاضمحلال ؛ فلا يبقى الا ما بها من عناصره فوق الاحوال المتقلبـة . وكلما قوي اتصال الاثر بالعناصر السامية كان صالحاً للحياة والخلود.

اما شعر المتنبي فان فيه ، والحق يقال ، قسماً كبيرًا يستند الى العوامل الظرفية والتقاليد الجارية في زمانه لفظاً ومعنًى . وان يكن هذا القسم لا يزال باقياً ، فانما هو بقاء المومياء المحنطة لا بقاء الكائن الحي ، يُحفظ في المكاتب كما تُحفظ في المتاحف . وقـد يعجب به مؤرخو الادب وبعض من شبوا على النظر بعيون القرون الخالية فلم يروا الا روعة القدم ؛ ولكنه لا يصلح غذاء للثقافة الانسانية الكاملة . ومـا اعجاب ادباء القرن التاسع عشر بهذا النوع التقليدي الا الدليل الواضح على ان الذوق الادبي في عالمنا ظلّ جامدًا مـدة القرون العديدة ، فلم يتطوّر الا في المدة الاخيرة . ولعل من خير الامثلة مـا ذكره الشيخ ابراهيم اليازجي في بدائع المتنبي من ابيات :

كأنّ العيسَ كانت فوق جفني مناخات ؛ فلما ثُرن ، سالا

هذه الصورة الابلية الضخمة ، البيّنة فساد الذوق في عصرنا ، كان يعجب بها الثعالبي قبل عشرة قرون ، ويُعجب بها اليازجي قبل خمسين سنة...

او أدلّ من هـذا المثل على ان الذوق الشعري قطع في الخمسين السنة

الاخيرة ، بل في العشر السنوات ، مسافة لم يقطعها في الالف السنة السابقة !

***

بيد ان هذه المعاني التقليدية والصور القديمة ليست باكثر ما في شعر المتنبي . فهناك طائفة صالحة تستند الى العناصر الانسانية الشاملة ، المرتفعة فوق الزمان والمكان . هناك الحان فخمة وقّعها ابو الطيب على اوتار العواطف الابدية من شكوى ، وألم ، وتظلّم ، وازدراء ، وترفّع عن التعزية حتى الانفة والكبرياء . هي نغمات تلاقي صدًى بعيدًا في كل قلب بشري . لان في كل منا ميلًا الى التظلم من الناس حتى الاصدقاء ، والى التشكي من الدهر ، والتظاهر بشيء من التشاؤم المترفّع حتى الازدراء بالحياة ومظاهرها الخلابة . وذلك ان هذه الحالات تدغدغ حب الذات وتعمل على رفع الانسان ، وان بالوهم ، فوق اقرانه . وهو مظهر متأصل في النفس البشرية أنى كانت نشأتها .

مَن منا تعاكسه الايام في بعض ما يريد ولا يصرخ بشيء من الاسف :

تجري الرياح بما لا تشتهي السفن !

مَن منا ، اذا تراكمت عليه الرزايا وكاد ينقطع وتر الاحساس من فؤاده ، لا يستسلم قائلًا :

فصرت اذا اصابتني سهامٌ ! تكسّرت النصال على النصال

حتى اذا سمع شاعرنا يقول :

عش عزيزًا ، او مت وانت كريم

عاود الكرة يعارك الدهر ، وفي معاركة الدهر نشوة تلذها النفوس الكبيرة ، وان آبت بالفشل .

مَن منا اذا اسودّت الدنيا في عينيه ، وسرعان ما تسود ، فرأى نفسه عرضة للتحامل والاجحاف يعرض عنه الاصدقاء ويجفوه الاحباء ، لا يردد متألمًا :

أذمّ الى هذا الزمان أهيله فأعلمهم فدم واحزمهم وغدُ

حتى اذا بلغت به المصائب مبلغ القنوط ازدرى البشر اجمعين ، واعرض عن كل تعزية دنيوية ، فصاح :

ولا تشكّ الى خلق فتشمته شكوى الجريح الى الغربان والرخم

واذا امتزج القنوط في نفسه بالحقد ، رفع صوته وارسل تلك الاحكام الدامغة :

لا تشتر العبد الا والعصا معه !
يا أمةً ضحكت من جهلها الامم !

وهناك ، فوق هذه المواطف ، حالات نفسية سامية يدركها الانسان ، اذا انتابته الخطوب المتعددة ، فصقلت التجارب نفسه ، وخففت من نزوات قلبه ، فاصبح يرى الحياة من قمة عالية فيستغرب اصطخاب الخلق على سطحها الاسفل ونزاعهم في سبيل الغايات الشخصية التافهة ، فيردد :

ومراد النفوس احقر من تتادى فيه وان تتفانى

ويخاطب الدنيا مخاطبة القرن لقرنه :

كذا انا ، يا دنيا ، اذا شئتِ فاذهبي

او يقف شاهدًا مترفعًا يتفلسف ببرودة تجاه حماقات الزمان ، ومزالاته بين السعادة والشقاء :

مصائب قوم عند قوم فوائد !

حتى اذا اراد ان يحنو على البشر فيقف منهم موقف الناصح الشفيق ، كان له من ابيات المتنبي ايضاً صدى لمقاصده ، وتحقيقاً لرغباته.

وان من يتعمق في درس الحالات النفسية ، ويتغلغل الى خفايا الاخلاق ، ويسير هادياً في متاهات المواطف ، حتى يرى كلّ انسان في اقواله صورة اماله الداخلية ، ويسمع صدى همساته الخفية ، أجديرٌ بان يكون في طليعة المترجمين عن هذا القلب الذي كان ولا يزال محور الادب الخالد ، يكتشف النوابغ كل يوم في حناياه شيئاً جديدًا ، وتظلّ اشياء كثيرة قيد الاكتشاف.

هذا هو المتنبي ، الشاعر الانساني ، في القسم المخلص من شعره.

خصّه الباري بعبقرية نافذة ، صقلتها ثقافة واسعة ، وغذتها اختبارات جمة في عصر توافرت فيه الاضطرابات من فكرية وسياسية ، فاقام الشاعر مجال قلبه فيشرح فيه كل قلب ، ويعبّر بلسانه فينطق به عن كل لسان . ويستند ، في كل ذلك ، الى صفة فطرية صبغت اثاره معنى ومبنى ، ووافقت موقعاً حساساً من الناس ، الا وهي القوة.

القوة اسّ لكل ما تقدم ذكره من الصفات الشاملة، تظهر بمظهرين عامين: الثقة بالنفس ، والانفة او الكبرياء . والناس مفطورون على الثقة بالنفس ، ميّالون الى الانفة ، فاذا لم يدركوها استعاضوا بالكبرياء ، تلك الانفة الزائفة . وهم، على ايّ حال ، معجبون بالقوة، حتى الجبناء منهم .

كان من نصيب المتنبي ان يبني ادبه العالي على أسّ القوة، وهو أسّ ثابت، فثبت . بناه على القوة الفكرية واخرجه في القوّة التعبيرية ، فراع الناس بهذا البناء الشامخ ، واعجبهم بما فيه من ألفة بين المعنى والمبنى . والمعنى والمبنى لا ينفصلان في الحقيقة ، فلا يقوم معنى جليل في مبنى ضئيل ، كما انه لا يعيش المبنى المتين على المعنى الضعيف المبتذل ، واذا عاش فالى حين . ولا يدوم الاثر الادبي الا اذا كان مبنياً ذا وحدة متينة ، وسواء أكانت هذه الوحدة في الاثر كلّه ام في بعض مقاطعه . فان الخلود يلتحق بالمظهر المتوحد ، ولو كان بيتاً فردًا. وهو ما نراه في بناء المتنبي. فان من عوامل تأثيره انفراد ابياته الحكمية وسيرها قطعاً مصكوكة تتداولها الذاكرات ، ويصقلها الاستشهاد ، فاذا هي على كل لسان منذ الف سنة يحفظها العالم والجاهل ، ويوردها المثقف والامي.

على ان هذا البناء العظيم لا يقيمه المتنبي حجارة دكناء لا لون فيها ولا حياة ، على نحو ما نعرف في الكثير من النظم الحكمي . انما هي صور شعرية رائعة كانت جديدة في عصرها فاثرت في السامعين، وتتابع اثرها متغلغلًا الى شعراء اليوم ؛ هي مشاهد فخمة حتى في دقائقها ، منها ما مرّ عليه الزمان فمحاه ، ومنها ما لا يزال في مقدمة المثل الشعرية ، يستفيد منه الكثيرون ، كوقفة سيف الدولة في المعركة :

وقفتَ وما في الموت شك لواقف؛ كأنك في جفن الردى وهو نائم
تمرُّ بك الابطال كلمى، هزيمة ، ووجهك وضّاح وثغرك باسم

ومثلها كثير . واغلبها في تصوير المعارك مما يتناسب وفطرة المتنبي القوية ، تحفّه موسيقى شديدة الوقع ، اثرت دون شك في سير هذا الشعر ، لانها عملت ، مع ما تقدم ذكره من العناصر ، على رفع السامع الى جوّ خاص من العظمة ، تكتنفه الجلبة ، ويسوده شيء من الفوضى الفخمة تسوقها القوة في

التمثيل والايحاء، فتضيع فيه هنات التعبير ونشزات المبالغة، اذ تتناسب مقاطعها وتتقلم اطرافها، اذا صحّ التعبير، فيقيسها السامع بمقياس تأثره وانفعاله. حتى اذا هبط به الناقد الى سكينة العلم، اطلعه على الكثير من مزالق الجرأة ونزوات الخيال. على ان هذه الهفوات نفسها كانت من اسباب شهرة المتنبي ايضاً، اذا اعتبرنا ذوق ذلك العصر، وما كانت توفر من مناظرات لارباب النحو واللغة والشرح يقضون بها ايامهم فيساهمون هم ايضاً، في مدّ شهرة الشاعر وبسط نفوذه، حتى ان الواحدي جعل من اسباب فضل المتنبي «خفاء معانيه، وكثرة ما يحتمل كلامه من وجوه التفسير وضروب التأويل».

فلا عجب — وهذه شخصية المتنبي — ان يؤثر ذاك الاثر البليغ في الشعر والشعراء، فيقلده المدّاحون، وينظر اليه نظّامو الحكم في جميع اقطار العربية، من فارس الى الاندلس، منذ عصره الى ايامنا؛ الّا فترات في عصر الانحطاط، قصّر فيها المقلدون حتى عن النظر اليه، فاخرجوه من بين الشعراء، وكأنهم نزعوا من امامهم الهدف الصعب المنال. اجل لا عجب ان نرى اثر المتنبي يطوي القرون حتى يصل الى القرن التاسع عشر بل الى القرن العشرين، فنسمع صدى نبراته القوية في شعر الشيخ ناصيف اليازجي، ومحمد سامي البارودي، بل في بعض شعر احمد شوقي.

***

ولا يسعنا الان — وقد ادركنا ختام البحث — الا ان نتساءل هل افاد هذا الاثر ادبنا العربي ام لا؟

مما لا شك فيه ان المتنبي رفع مستوى الشعر العربي، فبرز فيه المثال الاعلى يُقتدى به في جميع فنونه. فكان من حسن اثره ان الشعراء، في سيرهم على طريقه، كادوا ينصرفون عن تلك الاستهلالات الغزلية البالية في قصائد المدح. قلنا: كادوا، لان الداء اعدى من الصحة، وفساد الذوق ابلغ اثراً من حسنه. ثم يمكننا الحكم ان المتنبي افاد في ادخال شيء من «الشعر» في تلك المنظومات الحكمية الجافة، وان كان لم يقوَ على تغيير نوع زائف بخروجه عن الطبيعة. ويجب القول ايضاً انه سما بالتعبير الشعري، فاضحى الشعراء بعده

يتطلبون السموّ والفخامة ، وجمال السبك ، وقوة الوقع .

على ان شخصية ابي الطيب البارزة ملكت على مقلديه مشاعرهم . فقدا ذاك المثال العالي في عصره ، مثالاً اعلى لكل العصور والازمنة ، لا في الشعر والاخراج فقط ، بل في التعرض للفنون الشعرية نفسها ، فانصرفوا يجدّون وراءه في ايّ عصر كانوا ، وفاتهم ان لكل عصر زيّاً في الادب ، ومثالاً للشعر ، كما ان لكل عصر فنوناً قد لا تكون للعصر السابق او اللاحق . وفاتهم ان من قلّد شاعراً بتقيّد ورهبة واحترام ، اقرّ ضمناً بتفوّقه عليه في كل شيء ، فقصّر عنه في كل شيء .

لقد قلّد المتنبي ابا تمام والبحتري ، ولكنه فاقهما . لانه عرف كيف يجعل شعره صورة لحياته المختلفة عن حياتهما . اما شعراء العرب منذ عصر المتنبي ، فلم يتصوروا اختلافاً في حياتهم عن حياته ، وبالتالي فانهم لم يتوهموا فنوناً غير الفنون التي طرقها ، حتى افقنا اليوم وليس في تراثنا الشعري الا قصائد المدح والرثاء والهجاء والمفاخر والحكم . وليس الذنب في ذلك للمتنبي ، انما هو لمقلديه الضعفاء ، ولما كان في محيطهم الادبي من جمود وجفاف .

ان الشاعر ، ايّاً كان ومهما سما ، لا يصلح مثالاً اعلى لجميع الفنون الشعرية في كل زمان ومكان . هو يمثل اعلى ما وصل اليه فنه في عصره فيصلح مثالاً يُقتدى به لا رسماً يُقلّد ، بل هو غذاء يستفاد منه في تنمية الثقافة العامة وكما ان الانسان ، اذا ما تناول طعاماً ، يكون قصده تحويل الطعام الى ما يصلح لغذائه ، لا تحويل نفسه الى ذاك الطعام ، كذلك على كل من يقتدي بشاعر ان يستمدّ منه غذاء لشخصيته الادبية ، لا ان يحوّل شخصيته الى صورة ناقصة لذاك الشاعر .

هكذا يتقدّم الشعر ، وهكذا تبرز الشخصيات الشعرية . فلا نستعبد للماضي ، ولا نقطع الصلة بيننا وبينه !